زاد الداعية

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)



الجمعة 28 أكتوبر 2022 04:37 م

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله؛ سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

بينما يستقوي الظالمون بكل أنواع القوى، ويعتمدون اعتمادًا كاملًا على ما لديهم من أدواتٍ هي من صنعهم؛ فإن أمتنا، أفرادًا وجماعات. حكوماتٍ وشعوبًا، على الصعُد كافة بحاجة ماسَّة إلى أن تلجأ إلى أعظم القوى وأشدِّ الأركان. إنها قوة الله. إنه ركن الله؛ الذي تمثله عبادة الله والتوكل عليه؛ يقينًا وعملًا وسلوكًا. (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) (هود). وافقًا ملموسًا؛ بعيدًا عن الشعارات الجوفاء والخطب الرنانة، فنحن في أشد الحاجة إلى معايشة القرآن الكريم وفهم معانيه وتحقيق واجباته التي فيها النجاة والفوز.

ولقد عُنِي القرآن الكريم بأمر التوكل مقرونًا بالعبادة في أكثر من آية (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) (المزمل: 9)، (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) (الملك: 29)، (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التغابن: 13)، (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود: 88)، (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين) (الفاتحة: 5)، (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) (هود: 123). فالعبادة والتوكل شطرا الدين الذي ارتضاه الله لنا.

فهذه الآيات تصور منطق الإيمان الصحيح كما نزل على قلب رسول الله وكما ينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن برسالته وكل قائم بدعوته، وهي تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق وكل من في الأرض من قُوىً مضادة، وفي ذات الوقت تصور الثقة واليقين والطمأنينة في القلب المؤمن، بعد وزن هذه القُوى بميزانها الصحيح.

<u>نظرات في العبودية</u>

لقد كانت وما زالت عبادة الله هي تكليف للناس. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) (البقرة: 21)، ولم لا وهي غاية وجودهم، ومن أجلها خلقهم؟ قال سبحانه (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)، والعبادة لا تعني فقط القيام بظاهر الدين دون الحياة في جوهره والعيش في كنفه؛ فهي تتسع لتشمل كل عمل صغير أو كبير يُقصد به وجه الله تعالى، وبالتالي فإن كل ما يحب ربنا ويرضى قولًا وفعلًا وشعورًا ونيةً هو نطاق العبادة في أسمى صورها، وعليه فكل عادة يمكن أن تتحول إلى عبادة، ما كانت خالصةً لله ووفق الشرع.

والهدف الأسمى للمنهج الإسلامي بكل فروعه: نظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، وتشريعات الأسرة، وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج. هو تحقيق معنى (العبادة) في حياة الإنسان.

فليس هناك أشرف نزلًا، ولا أرفع قدرًا ولا أكرم مكانةً من أن نكون عبادًا لله كما يحب ويرضى، فالتذلل بين يدي الله منتهى العز، والخضوع أمام سلطانه قمة العظمة، والخوف من قهره وانتقامه منبع الأمن، والبكاء من خشيته مبعث الرجولة، وذلك كله لا يكون إلا لله، فهو وحده المستحق للعبادة بلا منازع أو شريك، قال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ).

إن حياتنا كلها بما فيها ومن فيها ينبغي أن توجَّه إلى الله الواحد القهار، ولا نخطو خطوة ولا نعمل عملًا إلا والله تعالى أمامنا، وهو ما قام عليه الجيل الفريد في العهد الأول من هذه الرسالة الخالدة وضرب به أروع الأمثلة العملية في العبودية.

عبودية.. تورث عزًّا لا ذل فيه، واستعلاءً لا تكبُّر معه، يكون شعارها «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام»، ومدادها «لقد ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله».

عبودية.. تصنع أسسًا لحكم قوامه العدل والمساواة والشورى واحترام الحقوق وأداء الواجبات يتحقق فيها قول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: «لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فيها إن لم نسمعها».

عبودية.. تولد المسئولية الفردية والجماعية عند الراعي والرعية على حد سواء، لا تفاخر فيها ولا بغي ولا حقد ولا حسد، تجسد قول المصطفى «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

عبودية.. ترتكز على التربية ومنظومة القيم الإيمانية والأخلاقية كأساس للتغيير والإصلاح وإرشاد الناس ومواجهة التحديات والأخطار التي تواجه الأمة وتنمي الإرادة الذاتية للشعوب في التغيير.

إن الأمة إن حققت صحة العبادة، بمدلولها الواسع ومفهومها الشامل وكان الله غايتها ومنتهاها فيما تقصد، لرحلت عن قلوبنا الدنيا وحل محلها حب الله وما أعده لنا، وعندها يتجلى المعنى الحقيقي للحياة، عندها سوف يتغير المشهد العالمي كله، فيعز الإسلام ويسود العالمين، ولن يفلح معنا مكر الصهاينة ولا غطرسة الأمريكان ولا ممالأة المنافقين ولا عمالة العملاء، وعندها ستشهد الدنيا بنور الإسلام.